عظماء قهروا اليأس

عبد الله النديم

يوسف الحمادى



عظماء قهروا اليأس

عبد الله النديم

بقلم

يوسف الحمادى

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى جيلنا الناشئ .

إلى أبناء اليوم ورواد الغد .

إلى طلاب المرحلة الأساسية وغيرهم ..

إليهم جميعا وإلى كل قارئ .

إليهم نقدم هذه السلسلة من حياة بعض عظمائنا ، الذين قهروا اليأس ، وبددوا ظلامه ، ونجحوا بإرادتهم القوية الجبارة أن يشقوا طريقهم بين الأشواك والصخور ، وأن يشاركوا بجهودهم الواعية البناءة في صنع حياتنا الحديثة التى ننعم بما فيها من حرية وعزة وكرامة .

وتشمل هذه السلسلة حياة :

محمود سامى البارودى ، أحمد عرابى ، على مبارك ، مصطفى كامل ، سعد زغلول ، محمد حافظ إبراهيم ، عباس محمود العقاد ، طه حسين . .

وستظهر إن شاء الله سلاسل تالية حول عدد آخر من البطولات والأبطال الذين خلدهم تاريخنا ، وكان لهم أثر بارز فيه .

ومن حق هؤلاء العظماء أن نفتح عيون أبنائنا على صفحات من حياتهم ، تنير الطريق ، وتحيى الأمل ، وتبنى النفوسى ، وتنشئ الجيل الجديد على حب مصر ، والوفاء لها ، والعمل لخيرها فى حماسة وإيمان مخلص صادق .

المؤلف

(١)

مولــده

نشأ والدُ عبدِ الله النديم ، وعاش شطراً من حياته فى قريةِ « الطيبة » إحدى قرى الزقازيق ، بمديرية الشرقية .

وكانت هذه القريةُ طيبةً ، كما يدلُّ على ذلك اسمُها ... أرضُها خِصبةٌ ، وزروعها متعددةٌ ، وغلاتها وافرةٌ ، تَدِرُّ لأهلها فى أكثرِ السنين بحاجتِهم من الرزق ، فيعيشون فى رحابِها هادئين قانعين .

ولكن النيلَ كان يُخلِفُها فى بعض السنينَ ، فيغيضُ[١] بها الماءُ ، ويجفُّ الزرعُ ، وتقلُّ الثمار ، فيهدِّدُ أهلَها الجوعُ والحرمان ، ومع ذلك لا يجدون من يرحمُهم من ثِقَلِ الضرائب ، أو يحميهم من عسفِ[٢] الحكام ، أو يخفِّفُ عنهم من ويلاتِ الحياة وأعبائِها ، فيعتصِمون[١] بالرِّضا والصبرِ ؛ حتى تنكشفُ عنهم ما ألمَّت بهم من شدَّة .

* * *

وعاش والدُ عبدِ الله وأسرتُه فى « الطيبةِ » كما يعيشُ أهلُها ، ولكنه لم يقنَعْ قناعَتَهم ، ولم يصبِر صبرَهم،فضاقَ بالقريةِ ، وضاقتَ القريةُ به ، فعزمَ على الرحيلِ منها ، ولكن : ماذا يصنعُ ؟ وأين يذهبُ ؟

---

(١) يغيض : ينقص (٢) عسف : العسف الظلم والقهر

(٣) يعتصمون : يلتزمون ويتمسكون

فكَّرَ الرجلُ ، ثم فكَّر ، وأخيراً استقرَّ رأيُه أن يهاجرُ إلى الإسكندريةِ ؛ لنشاطِها ، وحيويتها ، وسعةِ أبوابِ الرزقِ فيها .

* * *

وفى الإسكندريةِ جلس الرجلُ على شاطِئ البحرِ الهادرِ[1] ، وسبحَ ببصرِه بين السماءِ والأمواجِ والبواخِر ، ثم عاد به إلى المراكِب والزوارقِ المنتشرةِ هنا وهناك .

وقال فى نفسِه :

وجدتها ! وجدتُها ! هنا فى هذه السفنِ مجالُ عملى ! ولم يتريثْ[2] ، بل ذهب إلى « الترسانة » ، مقرِّ بناءِ السفن بالثغرِ ، وعرَضَ نفسَه وحرفتَه على من بها ، فقبِلُوهُ ورحَّبوا بعملِه نجاراً فى هذه السفن ، وكانت له خبرتُه بهذه الحرفة ...

ولم يستمرُّ فيها طويلًا ؛ فما كاد يجتمعُ له قدرٌ صالحٌ من المالِ حتى افتتحَ لنفسِهِ مخبزاً خاصًّا استقَّل به ، واعتمدَ عليه فى عيشه .

* * *

هذا الوالدُ هو مصباحُ بنُ إبراهيمَ الإدريسىُّ الحسنىُّ ، أو السيدُ مصباح ؛ لأنه ؛ فيما يذكرُ وتذكرُ أسرتُه عنه ، من الأشرافِ الذين ينتهى نسبُهم إلى آلِ البيتِ النبوىِّ ، وإلى الحسنِ بنِ علىِّ بنِ أبى طالبٍ من هذا البيت .

وقد كانت حياةُ هذا الوالِد ، كما جاءَ على لسانِ ابنِه عبدِ الله الذى يترجِمُ[3] له هذا الكتابُ ، بين سنتى ١٢٣٤ و ١٣١٠ من الهجرةِ .

---

(١) الهادر : العالى المتردد الصوت .　　(٢) لم يتريث : لم ينتظر

(٣) يترجم : يسوق سيرة حياته

يقول هذا الابنُ عنه :

« كان مولدُه ببلدةِ « الطيبةِ » من قرى الشرقيةِ فى اليومِ العشرين من شهر ذى الحجةِ سنة ١٢٣٤ ، ووفاتُه فى الدقيقةِ التاسعةِ والعشرينَ من الساعةِ التاسعةِ العربيةِ من ليلةِ الأحدِ الموافق ٤ من رجب سنةَ ١٣١٠ — ٢٢ من يناير سنة ١٨٩٣ ؛ فعمرُه خمسٌ وسبعون سنةً ، وستةُ شهورٍ قمرية ، وأربعةَ عشرَ يوماً

* * *

ظلَّ هذا الوالدُ فى الإسكندريةِ شطراً طويلًا من حياته ، تبسِمُ له الحياةُ وتعبَس ، يلينُ له العيشُ ويَخشُنُ ، تحلو له الدنيا وتُمِرُّ[1] ، وهو فى كل حالٍ يبذلُ جهدَه ليشقَّ طريقَه بين أشواكِ الحياة ، وبين المنافسينَ له من أصحاب المخابز الذين يحترفون حِرفتَه ، ويسعَوْن سعيَه .

* * *

وفى سنةِ ١٨٤٣ من الميلادِ وُلِد له طفلُه عبدُ الله ، وكانت ملامحُ الطفلِ الوليدِ تدلُّ على الحيويةِ والنجابةِ وخِفَّةِ الروح ، وإن لم تحمِل دلائلَ الوَسامةِ[2] والجمال .

ولم يأبه الأبُ أو تهتمَّ الأمُّ بهذه الدلائِل ، وسَعِدا بهِ غايةَ السعادةِ ، ودعا كلٌّ منهما ربَّه أن يكونَ بشيرَ خيرٍ لهما ولنفسِه .

* * *

(١) تمر : تكون مرة

(٢) الوسامة : الحسن

(٢)

نشأة عبد الله وتربيته

نما عبدُ الله الطفلُ سَويًّا[1] قويًّا ، وملأ حياةَ أبويه بلعبه ومرحِه ونشاطِه .

وكَبِرَ الطفلُ ، فبلغ سنَّ التعلُّم ، وإذ ذاك دفع به أبوه إلى الكُتَّاب ليحفظَ القرآنَ الكريمَ ، ويتعلَّمَ مبادئ القراءةِ والكتابة ... ثم لمَحَ فيه من الذكاءِ ، والإشراقِ ، والقدرةِ على التحصيلِ ، ما شجَّعه أن يساعدَه على متابعةِ الدراسة .

وكان الشائعُ من أنواعِ التعليمِ والمعروفُ منه أكثرَ من غيرِه ــ التعليمَ الأزهريّ ، بجوامعِه أو مساجدِه المنتشرةِ فى المدنِ الكبيرة ، فأدخل السيدُ مصباحٌ ابنَه عبدَ الله جامعَ إبراهيم باشا بالإسكندرية . وفى هذا الجامعِ قضى الصبىُّ فترةً ، يتعلم ويحصِّل ، ويسألُ ويجيبُ ، ويناقشُ ويجادلُ ، ويتقبَّلُ ويرفضُ ، ويرضى عن شيوخِه حيناً ، ويُعرِض عنهم أو يتمردُ على بعضِهم فى غيرِ قليلٍ من الأحيان .

وكان من مدرسيه فى هذا الجامعِ أربعةٌ جاءَ ذكرُهم على لسانه ، وترددت أسماؤُهم فى أحاديثِه ومذكراتِه .

وهم الشيخُ محمد جاد شيخُ المذهبِ الشافعىِّ بالإسكندرية ، والشيخ

---

(١) سويا : مكتمل الخلق

إبراهيمُ السِّرسيُّ ، والشيخ خفاجةُ ، والشيخ محمدٌ العشريُّ ، وكان هذا الشيخُ أقواهم صلةً به وأشدَّهم تأثيراً فى نفسه .

لكن عبدَ الله الذى دخلَ مرحلةَ الشبابِ لم يُكْمِل دراستَه ، ولم يتابعْ حياتَه الأزهرية ؛ ولعل ذلك لأنه ضاقَ بها ، وبطولِها ، وببعضِ شيوخه فيها ، وكان كالطائرِ الذى يريدُ الانطلاقَ من قفصِه لينعَمَ بجوٍّ متحرِّرٍ ، يتنقلُ فيه متى شاءَ وكيف شاء ، وشدَّه إلى هذا الجوِّ ميلُه إلى الشعرِ والزجلِ ، يحفظُ منهما ، ويدرِّبُ موهبتَه الناميـةَ المتفتحةَ على البراعةِ فيهما ..

ونظر الفتـى إلى نفسِه ، فوجـد لها من الميـزاتِ ما دفـع به إلى هذا الانطلاق .. وجدها تمتازُ من بينِ زملائِه فى الدراسةِ بالكثيرِ .. يسمعُ كما يسمعون ولكنه يفهمُ أكثرَ مما يفهمون ، ويقرأُ كما يقرأون ولكنه يعى أكثرَ مما يعون ، ثم هو يلتقطُ ببديهته ما يعجزُ غيرُه عن الوصولِ إليه بعد رويةٍ[1] وإعمالِ فكر ، ويَحفظُ من مرةٍ ما لا يحفظُه غيرُه من مرات ، وهو ، بعد ذلك ، متحدثٌ ، طلْقُ اللسانِ ، بدأت مواهبُه تهيئُ له أن ينظِمَ الشعر ، ويكتبَ النثرَ السائغَ فى عصرِه ، ويرسلَ الزجلَ فى سرعةٍ ويسر[2].

* * *

وأدرك أبوه ما يدورُ فى نفسِه ، فنصَحَ له أن يستمرَّ فى دراستِه ، ولكن الفتى الناشئَ أبى ، وأصرَّ .. فألح الأبُ ، ولكن إلحاحه لم يغنِ شيئاً ، وأخيراً ترك ابنَه لشأنِه وتخلَّى عنه ، ومضى الفتى يُعِدُّ نفسَه للحياةِ التى أرادها لها ، عصاميًّا[3] معتمدا على جهدِه ، واثقاً بما منحه القدرُ من مواهبَ وقدرات .

---

(١) رويه : الروية التأنى (٢) يسر : سهولة .

(٣) عصاميا : العصامى الذى يعتمد على نفسه فى تنشئة نفسه



(عبد الله النديم)

(٣)

الفتى بين الوظيفة والأدب

خلَص الفتى للحياةِ التى أرادَها لنفسه .

وبعد فترةٍ لم تطُلْ رآه الناسُ قد تعلَّم مهنةَ : الإشاراتِ البرقية « التلغراف » ، وشهدوه أمام الجهاز الخاصِّ بها ، موظفاً من موظفِى الحكومة فى ملبَسه الإفرنجىِّ تبعث دقاتُ يده بالرسائِل البرقيةِ إلى بلادِ القطر ، وتستقبلُ مثلَ هذه الرسائِل فى دقةٍ بارعةٍ ، وسرعةٍ فائقة .

وفى هذه الوظيفةِ قضى عبد الله سنواتٍ من عمره ، ومنها أخذ يكسِبُ عيشه ، راضياً عن حياتِه الجديدة الطليقة ؛ فقد انزاح عبؤُه[1] عن أبيه ، وتفتَّحت ميولُه فى الشعرِ والزجلِ ، وشحبَت[2] بها ذكرياتُه ، شيئاً فشيئاً ، عن شيوخِه فى جامِع إبراهيم ، ولم يبقَ واضحاً فيها وراسخاً بها غيرُ الشيخ محمد العشرىِ الذى كان عبدُ الله يحبُّه ، ويقدّرُه ويكتبُ إليه ، ويتلقى رسائلَه .

* * *

وعَمِل عبدُ الله فى مكتبِ البرقِ بينها ، ولكنه لم يأنسْ[3] إلى الإقامةِ بها ، ولم تَستقرَّ نفسُه بالحياة فيها . وعاش قَلِقاً . يتطلَّعُ أن يُنقلَ منها ، وكان شعورُه فى

---

(١) عبؤه : حمله .   (٢) شحبت : تغيرت وضعف أثرها

(٣) لم يأنس : لم يسترح

ذلك أشبهَ بشعورِه إزاءَ جامِع إبراهيمَ باشا والدراسةِ فيه .

وكان طبيعيًّا أن يُلِحَّ[(١)] عليه هذا الإحساسُ ؛ فهو فى طبيعتِه الأصيلةِ ، أديبٌ مرهَفُ[(٢)] الحس ، جياشُ[(٣)] الشعور ، يريدُ جوًّا غيرَ جوِّ الأقاليم ... جوًّا فيه غذاؤُه الأدبىُّ من الشعرِ والنثر ، وبه أصحابُه من الأدباءِ ، الذين يبادلُهم القولَ ، وينافسُهم فى فنونِ الأدبِ شعرِه ونثره ، ومثلُ هذا الجوِّ ليس مهيأً عن سعةٍ إلا فى القاهرة .

* * *

ولم يهدأ عبدُ الله ، وظلَّ يسعى حتى نُقِلَ إلى مكتب البرقِ بقصرِ الوالدة ، وهو القصرُ الذى كانت تسكنهُ والدةُ الخديو إسماعيل ؛ بما لها فى الأسرةِ الحاكمةِ من مكانةٍ وسطوة[(٤)] .

وفى هذا المكتبِ جلسَ الموظفُ الجديدُ منتفخاً ، ومنه اتسعت معرفتُه أو صلتُه بأساتذة العلم والأدبِ واللغةِ ، من أمثالِ جمالِ الدين الأفغانىِّ ، والشيخ محمد عبده ، ومحمودِ صفوت الساعاتىِّ ، ومحمودِ سامى البارودىِّ ، وعبدِ الله فكرى والشيخ حمزةَ فتح الله .

وكان كلُّ يومٍ يمرُّ به فى هذا المكتب يزيد من هذه الصلات ، ويرقى بمواهبه الأدبية ، فيضيفُ إليها جديدا من القوة والنماء .

وفى هذا المكتبِ سَعِدت نفسُه ، وسَعِدَ به معارفُه ، وكثُرَ تردُّدُهم عليه فى عمله ، واشتدَّ اتصالُه بهم فى دورِهم وقصورِهم وندواتِهم ، ووجدوا فيه

---

(١) يلح عليه : يديم الضغط عليه — (٢) مرهف : رقيق

(٣) جياش : متدفق — (٤) سطوة : بطش و قهر

سميراً لا يبارَى[١] ، ونديماً لا يجارَى فى أحاديثِه وفكاهاتِه وطرائِفه[٢] ؛ ولهذا لم يكن عجيباً أن يلقِّبَه أصدقاؤه منذُ وضُحَت فيه هذه الموهبة بلقبِ النديم .

وحَرَصَ عبدُ الله أن يلقَّبَ بهذا اللقب ، وأن يُعرَفَ به . قالَ فى إحدى رسائِله إلى أستاذِه الشيخ محمد العشرى ، معرِّفًا بباعثِ الرسالة .

غلامُك الشهيـــــرُ بالنديـــــمِ من صار فى البيـــان كالنسيـــمِ

* * *

ولم تطُلْ حياتُه فى هذا المكتب ، ولا عمرُه فى الوظيفة .

كان على رأسِ غلمانِ القصرِ وعبيدِه وحشمِه[٣] خليل أغا ، وكانت لهذا الأغا منزلتُه عند الوالدةِ ، وكلمتُه النافذةُ فى شئونِ الخدمةِ بالقصر .. ويبدو أنه أخذ على النّديمِ ما لم يعجبْه من مسلكِه وتصرُّفه ، فَغَضِبَ عليه ، وأمر بعزلِه من الوظيفةِ وإقصائِه عن القصر .

وخرجَ النديمُ من المكتب ، وهو يَحمدُ اللهَ على أنه غَنِمَ حياتَه ، ونجا من براثنِ[٤] هذا الأغا الذى يأمُرُ وينهى ، ولا يعقِّبُ[٥] عليه إلا مثل الوالدةِ والأمراء .

* * *

---

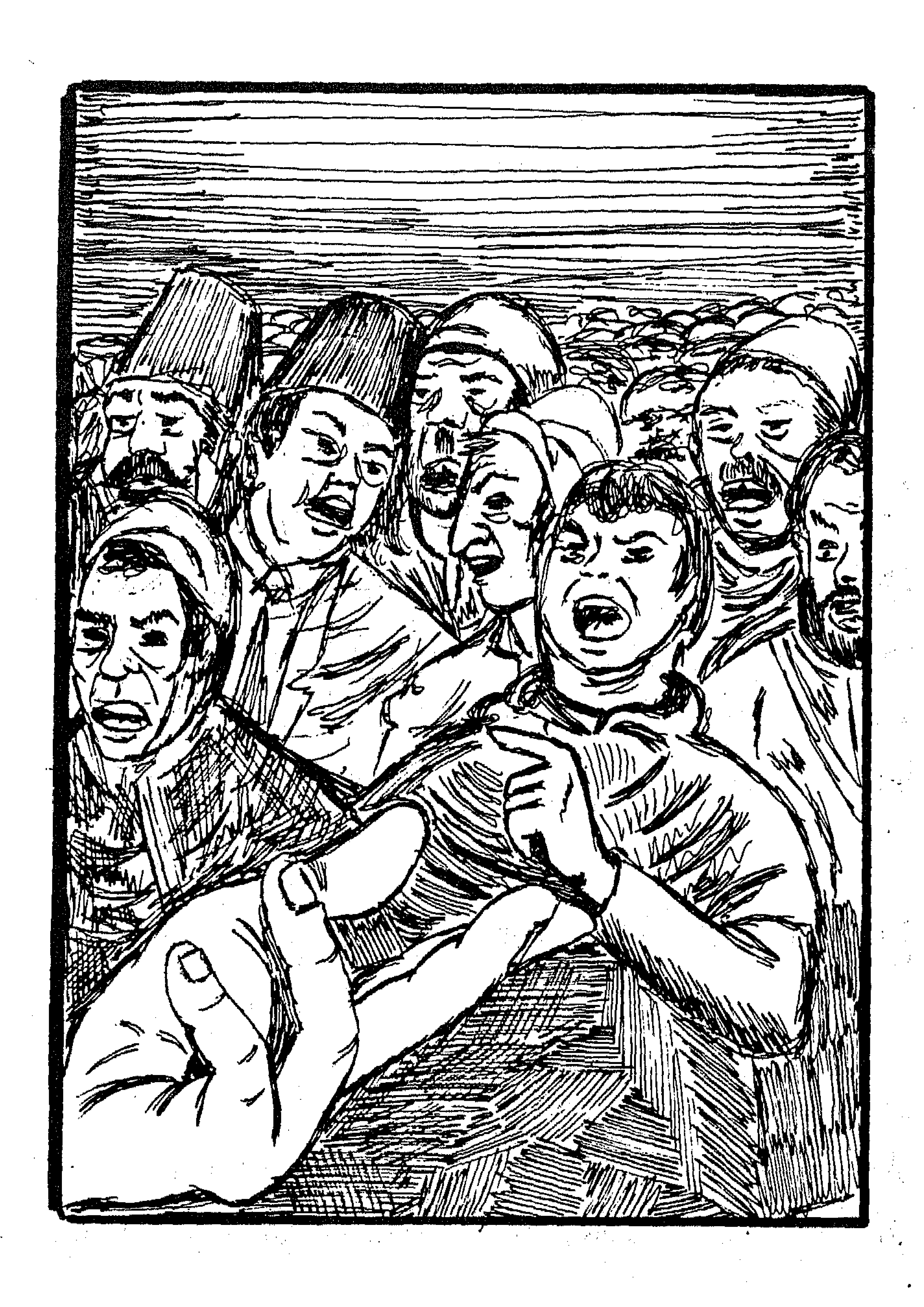
(١) لا يبارى : لا يسابقه أحد

(٢) طرائفه : نوادره

(٣) حشمه : خدمه .

(٤) براثن : مخالب

(٥) لا يعقب عليه : لا يغير منه



(٤)

النديم فى الأقاليم

جلس النديمُ يفكرُ ، ويمعنُ فى التفكير .

لقد فقدَ الوظيفةَ ، وكانت له مصدرَ رزقٍ آمنٍ مستقرٌّ ، وإن كان ما تَدِرُّ به[1] قليلًا لا يفى بمطالِبه ومآربه ... وعرَّض نفسَه لتياراتِ القصرِ ، وما كان أغناه عنها وأبعدَه منها ! وخطرَ له أن يعتذرَ للأغا ، أو يتوسلَ إليه ببعضِ عارفيه ، ولكنَّ هذه الفكرةَ لم تُرُقْهُ[2] ؛ لصرامةِ هذا الأغا وسوءِ طبيعتِه ، وقد أصبح على أهبةِ الرحيلِ من القاهرة التى سعى إليها وإلى جوِّها الأدبىِّ ؛ خوفاً من نقمتِه ومكايِده .

كلُّ ذلك بعثَ الندمَ والأسى فى نفسِ النديم ، ولكن سُرعانَ ما لمع شعاعٌ من الأملِ والرّضا فى ذهنِه !

لقد تفتحت نفسُه للخلاصِ من حياة الوظيفةِ وقيودِها ، وأحبَّ أن يعيشَ لأدبِه وفنِّه ، وأن ينتقلَ من دقاتِ جهاز « البرقِ » إلى دقاتِ القلوب ، ومن تيارِ ضرباتِه إلى تيارِ العواطفِ والمشاعر ، وعادت الأقاليمُ فلمعت فى عينيه ، وآثَرَ ما بها من عيشٍ هادئٍ آمن ، على القاهرةِ ، وقصرِ الوالدة ، وأخطبوطِ الأغا

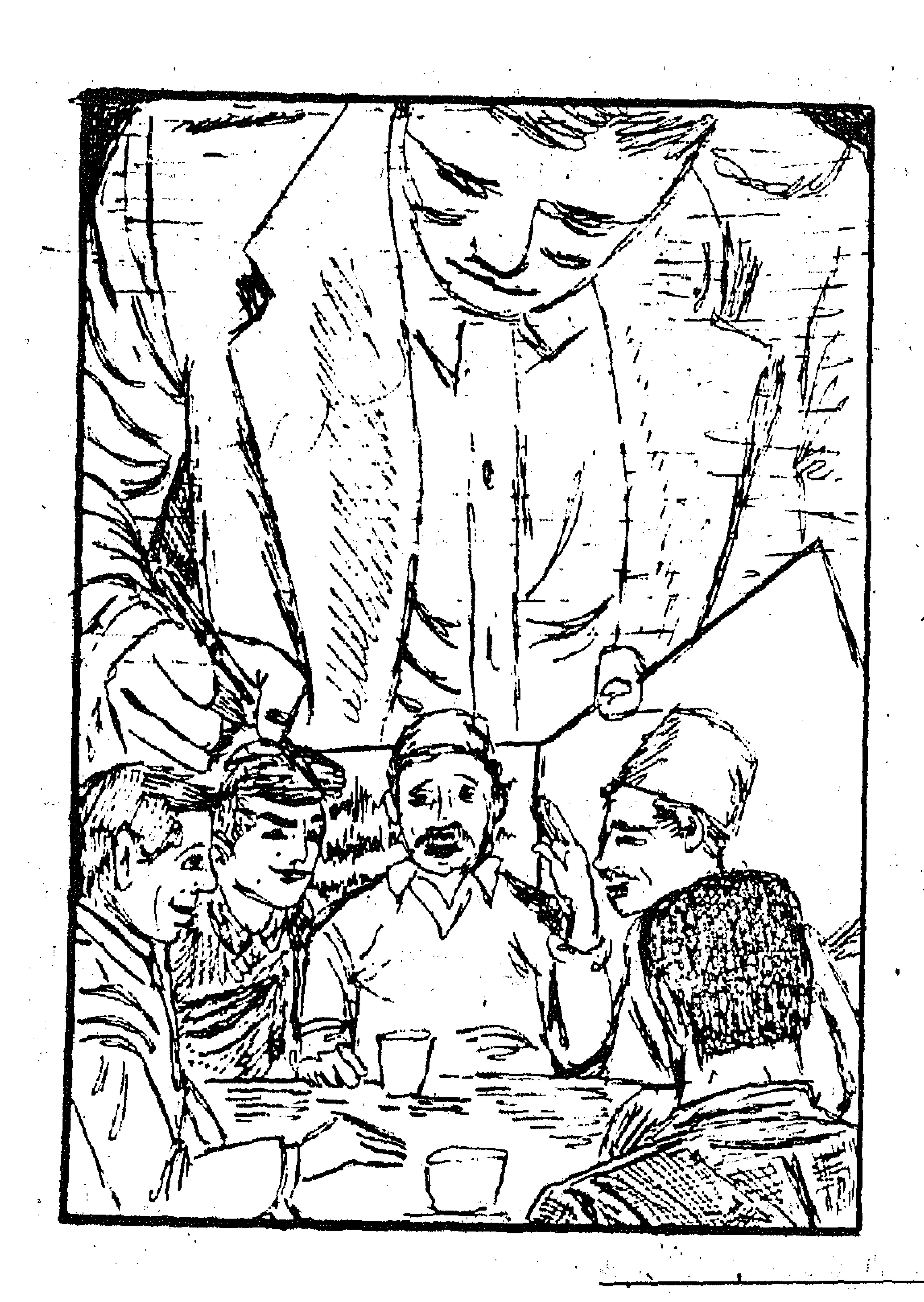
(١) الجاه : المنزلة والقدر (٢) مهد : هيأ وسهل

ومكايدِه .

* * *

وعادَ إلى الأقاليم ، فتلقَّفه أثرياؤُها ، حبًّا فى سمرِه وأدبِه ، ورغبةً من أحدِهم فى الزهوِ به وبمدائحِه على منافسيه فى الجاهِ[1] والثراء .

ومن الأقاليمِ الذى رحل إليها « المنصورة » ، وفيها لقيه تاجرٌ كبيرٌ ، فتحَ له



(١) الجاه : المنزلة والقدر .

بابَ دارِه ، ومهّد له[١] سبيلَ الرزقِ ، فأسّس له حانوتاً لبيعِ المناديلِ والقمصانِ والجواربِ وما إليها ... ونسى هذا التاجرُ أنه أمامَ أديبٍ ، مهنتُه الكلمةُ واللعب بالعواطِف والمشاعِر ، وليس أمامَ تاجرٍ ، يحسنُ البيعَ والشراءَ وحسابَ الجنيهاتِ والقروش .

وأفلسَ دكانُ النديم ، أو دكانُ التاجرِ الذى يعملُ به النديم ، ويبدو أنه خَجِل من نفسِه وموقفِه ، ففكرَ فى الرحيلِ من المنصورةِ ، مع ما نَعِمَ به فيها من إقامةٍ طيبة ، وصحبةٍ أدبيةٍ حبيبةٍ إلى نفسِه ، ومع أن التاجرَ لم يُغلِق بابَه فى وجهِه ، فكان يطوِّفُ[٢] ما يطوِّفُ ثم يعودُ إليه .. تحدَّثَ النديمُ عن بعضِ أصدقائِه من الأدباءِ فى المنصورة ، وموقفِه منهم ، فكان من حديثِه :

« قال حسبى[٣] هؤلاءِ من المدنِ والقرى ، فكل الصيدِ فى جوفِ الفَرا[٤] ، فعاهدَهم عهدَه ، وأخلصَهم وُدَّه .

وانتَدبَ منهم اثنينِ لأنسِه وسرور نفسِه ، إلا أن الدهرَ الغدارَ لم يرضَ له قربَ الدار » .

* * *

دعاه الشيخُ أحمدُ أبو سعدةَ عمدةُ « بدواى » بإقليم الدقهليةِ ، فذهبَ إلى بلدتِه ، وأقامَ فى جوارِه فترةً ، يعلِّم أولادَه ، ولكنه شيئاً فشيئاً لم يجد الرعايةَ التى كان يرجوها من العمدةِ أو بلدتِه ، فأطلق فيهم لسانَه بأقسى الهجاء .

ونزلَ بطنطا .

---

(١) مهد : هيأ وسهل
(٢) يطوف : يجول هنا وهناك
(٣) حسبى : يكفينى
(٤) الفرا : الحمار الوحشى ، « وكل الصيد فى جوف الفرا » مثل يضربه المرء ليدل على أنه حصل على ما لم يحصل عليه غيره

وهناك التقى بشاهين باشا مفتش الوجهِ البحريِّ ، وكان هذا المفتشُ يَودُّ لو رآه ؛ لأنه سمِعَ أغنيةً ، طرِبَ لها ، فسأل عن قائِلها ، فأُجيبَ بأنه النديمُ ، فظل يتساءلُ عنه ، حتى أتيحَ له لقاؤُه .. ومطلعُ هذه الأغنيةِ قولُ النديم :

سلوه عن الأرواح فهى ملاعبُه — وكفُّوا إذا سلَّ المهنَّدَ حاجبُه

وقد أُعجِبَ شاهين باشا بالنديمِ وأحاديثِه وسَمَرِه . فعقد له مجلساً أدبيًّا فخْماً يتحدَّى به زعماءَ الأدبِ الشعبيِّ فى الغربية .. وفى وصف هذا المجلسِ يقولُ النديمُ :

« عقدَ الباشا لذلك مجلساً أمام بيتِه بطنطا ، وأجلسنى بينه وبين المرحوم جعفر باشا مظهر ، وقد وقف الناسُ ألوفاً والعساكرُ تدفعُهم عنا ، ثم ابتدأ الشيخُ ، فقال :

أول كلامى حمد الله — ثم الصلاةُ على الهادى
ماذا تريدُ يا عبد الله — قدام أميرنا وأسيادى

فأجابه النديم :

إنى أريد أحمد ربى — ثم الصلاة على المختار
وإن كنت تطمع فى أدبى — أسمعك حسن الأشعار »

ودخَل به الشيخُ فى فنونِ الأدبِ الشعبى ، والنديمُ يباريه .. حتى أثارَ إعجابَ الحاضرين بقدرتِه وبراعتِه . وخلالَ هذه الرحلةِ فى الأقاليمِ أشرفَ على ضياعِ بعضِ الأثرياء ، وأخيراً فكر فى العودةِ إلى بلدِه الذى شَهِد مولدَه ، وطفولتَه ، وخطاه الأولى على طريقِ الحياة .

* * *

(٥)

النديم بعد جولته فى الأقاليم

عادَ النديمُ من جولتِهِ الطويلةِ فى الأقاليمِ إلى الإسكندريةِ ، وكان لهذه الجولةِ أثرُها الكبيرُ فى نفسه .

رجع وقد التحمَ بالشعبِ ، وعاشَ بين آلامِه وآمالِه ، ورأى بعينى رأسِه الصورَ الأليمة التى عاشَ وما يزالُ يعيشُ فيها الكادحونَ المعذبون .

ونَضِجَت على نيرانِ المنافسةِ بينه وبينَ روَّادِ[1] الأدبِ فى الأقاليمِ مواهبُه ، فكان كاتباً ، خطيباً . شاعراً ، رجَّالًا ، متصرفاً فى ألوانِ الأدبِ الشعبىِّ على اختلافِ صورِها وأساليبها ، وكان لا يجارَى فى حضورِ بديهته ، وغزارةِ محفوظِه ، وقدرتِه الفذةِ[2] على التأثيرِ فى سامعيه ، بالعربيَّةِ إذا شاءَ ، وبالعاميةِ إذا أراد .

وتحوَّل من جوَّالٍ مشغولٍ بنفسِه وهمومِ عيشِه إلى وطنىٍّ مشغولٍ بوطنِه ، وبالمآسى التى مرَّت وتمرُّ به على يدِ أسرةِ محمد على .

* * *

حقا ! لقد بنى هذا الحاكمُ دولةً ، ولكنه هَدَم بخروجِه على الخليفةِ العثمانى دولةً كبرى ، هى الدولةُ الإسلامية ، و « قد ارتكب هذا الأميرُ ما يرتكبُه كلُّ

(١) رواد الأدب : طلائعه .   (٢) الفذة : النادرة

مؤسِس أمرٍ خطير ، من ضربٍ وتعذيبٍ ، وقتلٍ وتغريبٍ »[١] ... وجاء إبراهيم باشا ، فكان عمادَ أبيه فى فتحِ الفتوحِ وتمهيد الحكمِ . إلا أنه كان ، كما يقولُ النديمُ ، « غضوباً ، سفَّاكاً ، باطشاً ، فتَّاكاً ، لا يبالى فى أىِّ عضوٍ أغمدَ[٢] سيفَه » ، وجاء عباسٌ باشا الأولُ فحاربَ التقدمَ ، ورجع بالبلادِ إلى الوراءِ ، وامتلأ دماغُه بالخرافاتِ ، « فخافَ من السحرةِ فاقتفاهُم ، وجمع منهم مئيناً ونفاهم ، ثم أخذ يتجسَّسُ على الأعيانِ ، وأرسل الكثيرَ منهم إلى « الليمان » ، وقد سعى فى قتلِ عميه حليم باشا ، ومحمد سعيد باشا » ، وأحسَّ الأميران الخطرَ ، فخرجا هاربين ليلاً فى زىِّ النساء .

* * *

وانزاح عباسٌ بعد فترةٍ من الحكمِ أليمة ، الحكامُ فيها جهلةٌ ظالمون من الأتراكِ والشراكسةِ ، أما أبناءُ مصر فمبْعَدُون عن الحكمِ ، وهؤلاء الحكامُ يكرهون الفلاحَ ، ويحتقرونَه ويرونه عبداً فى أيديهم ، يتصرفُون فيه ، كما يتصرَّفُون فى السوائم[٣] .. « القوَّاصُ الحقيرُ منهم يضربُ العمدةَ الكبيرَ ، والبوابُ الذليلُ يصفعُ السيِّدَ الجليلَ ، والمأمورُ دائرٌ فى البلاد بالعُدَّة . ورجالِ السوءِ المستعدَّة ، يضربُ النساءَ والرجال ، والخدَمَ والعيالِ » .

« كأن الدارَ وادٍ فيه مرعًى مباحٌ كلُّ ساكنِه بهيمُ »

* * *

كذلك كانت مصرُ . وكانت الأسرةُ الحاكمةُ ، حتى جاءَ محمدُ سعيد

---

(١) تغريب : تشريد . (٢) فى أى عنق أغمد سيفه : جعل العنق غمدا له

(٣) السوائم : البهائم الراعية .

باشا ، فكان فيها نادرةَ حكّامِها ..

بدأ فأسسَ فى مصرَ حزباً وكانت لا تسمَعُ عن الأحزاب ، وبسط فيها الأمنَ وكانت لا تعرفُ إلا الخوفَ من الحكومةِ ، ووزّع الأرضَ وكانت بيدِ القائمين على الأمرِ ، وطردَ الظالمين وبطانة السوء .

فاستقرت النفوسُ واستردّت أنفاسَها ، ودفع الفلاحين إلى دائرةِ الضوء ، بعد أن كانوا فى ظلامٍ حالك[1] ، واختارَ كثيراً من أبناءِ الوطنِ فى الإدارة ، وفتحَ أبوابَ الجيشِ لأبناءِ العمد ؛ ليكونوا حماة الوطنِ وعدّته ، ولم يمُدَّ يدَه للاستدانةِ ، أو ينغمسْ فى اللذاتِ والشهواتِ ، أو يُبدِّدْ أموالَ الدولةِ ، أو يطمعْ فيها ، بل كانت فيه نزعةٌ دينيةٌ ، تدفعُه إلى خشيةِ الله[2] تعالى ، والبُعدِ عما يُغضِبه ، وكان واسعَ الأفقِ فألَّفَ بين قلوب شعبِه ، ولم يُثِر الفرقة فى الجيشِ بين المصريين والأتراكِ والشراكسةِ .

وكان ممن قرَّبهم إليه من المصريين حسين حلمى ابنُ عمٍّ أحمد عرابى ، وأحمدُ عرابى الذى اتخذه « ياورا » له .

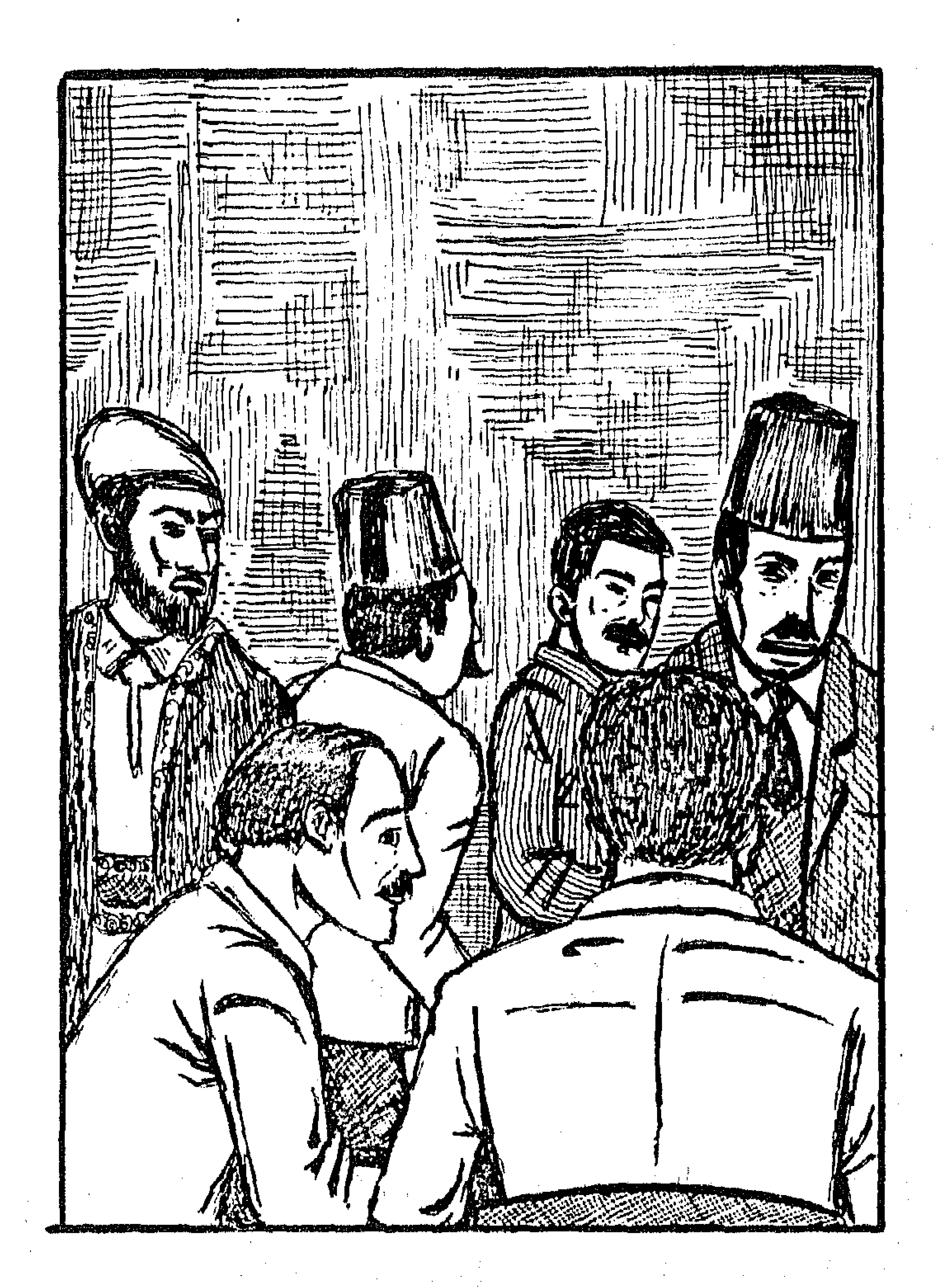
وجاء إسماعيلُ باشا سنة ١٨٦٣ ، فهدَّم ما بناه سعيدٌ ، وشهِدَ النديمُ ، وهو فى الإسكندريةِ ، كثيراً من صورِ الهدم والتخريب .

رأى هذا الحاكمُ سلفَه يتقرَّبُ من المصريين ، ويتودَّدُ إلى الفلاحين ، فعاد هو إلى احتقارِهم وإذلالِهم ؛ كأنهم عبيدٌ فى ضياعِه وضياعِ أسرتِه .

ووجده يؤلفُ بين طبقاتِ الأمةِ ، ويكوِّن من الأتراك والشراكسةِ والمصريين فى الجيش وخارجِ الجيش وحدةً قويةً متماسكةً ، فجدَّ فى تفريقِ

---

(١) حالك : شديد السواد . (٢) خشية الله : الخوف منه .



وحدتِهم ، وإشعالِ نار العصبيةِ بينهم .. جاءه « خسرو » باشا ، أحدُ كبارِ رجالِ جيشه من الشراكسةِ ، وشكا إليه أحمد عرابى ، لأنه ردَّ على سبِّه له وللمصريين والعربِ بقوله :

« إن الفلاحَ اسمٌ قبيح عندَك ، ولولاه ما رأيتَ سعدَك ، فإنه سيِّدُك الذى سباك[1] بنعمتِه ، ومولاكَ الذى أعتقَك بمنحتِه[2] ، وهو السيدُ وأنتَ العتيق » .

---

(١) سباك : أسرك .

(٢) منحته : عطائه

فغضب له الخديو ، وأمرَ بأن يُعْقَدَ مجلسٌ عسكريٌّ لمحاكمتِه ، وعُقِدَ المجلسُ فبرَّأَهُ ، وكان من قولِ رئيسِ هذا المجلس :

« لا لومَ على « عرابى » فيما ردَّ به على « خسرو » بعد أن سبَّ جنسيتَه ، ووجَّه كل عيبٍ إليه » .

وزاد غضبُ إسماعيلَ « لخسرو » ، وسخطُه على « عرابى » ، فأمر بإقصائِه من الخدمةِ ، ولكنَّ بطانتَه خوفته العاقبةَ فاكتفى بنقلِه إلى نظارةِ الجهادية .

* * *

وعرف إسماعيلُ أن سعيداً يحنو على الكادحين ، فلا يرهقُهم بالضرائبِ ، ويقول فى بعض أحاديثِه كما ذكر النديم :

« أنا أسدُّ ديونَ الحكومةِ من مالِى ومالها ، من غيرِ أن أوقعَ الفلاحين فى أوحالِها » ، فجاء هو وزادَ من هذه الضرائبِ وأكثرَ من أنواعِها ، حتى لا يكاد الذهنُ يتصورُ كسباً لم تفرضْ عليهِ ضريبة .

وشَهِدَ هذا الخديو ألسنةَ الناسِ تُثْنِى على سعيدٍ لعفَّتِه : وعدمِ إغراقِه فى اللذاتِ وألوان الترفِ والزينةِ ، فكان على النقيضِ منه . يصورُه النديمُ فيقول :

« غارقٌ فى لذاتِه ، سائرٌ خلفَ شهواتِه ، لا يرفعُ إلا الأراذلَ ، ولا يقرِّبُ إلا الأسافل » ... « سلَّطَ بعضَ رجالِه لإكراهِ الأهالِى على تسليمِ الأطيانِ ، فاغتصبوا له تفاتيش المنيا ، والروضةِ ، ومغاغة ، وغيرها ..

ثم استعملَ حسن راسم على الأقاليم البحرية ، ليتمم الخرابَ ، ويعمِّمَ البلية[1] ، فاستخلَصَ له تفاتيش الصافيةِ والشباسات وبلقاس وبيلة وبشبيش

---

(١) البلية : البلاء .

وغيرَ ذلك من التفاتيش ، والعَربونُ[1] السلبُ ، وبقيةُ الثمن الضرب » .

ووجد الأجانبُ هذا الخديو يَغرِقُ ، ويُغرِق مصرَ فى الديون ، فعمِلوا على عزلِه عن العرش ، وعزلوه عنه سنة ١٨٧٩ ، ووليَ الأمرَ بعدَه ابنُه توفيق ، وكان من مبرراتِ ذلك حمايةُ المالِ الأجنبيِّ من الضياع .

* * *

كانت هذه الصورُ كلُّها تمر بذهن النديمِ ، فيسجِّلُها صورةً بعد صورةٍ ، وحلقُه فى أشدِّ المرارةِ لما أصابَ مصر ، ونفسُه فى أشدِّ الأسى لها : والحماسةِ لإنقاذِها .

* * *

(١) العربون : مقدم الثمن .

(٦)

كفاح النديم قبل الانضمام إلى حركة عرابى

كان النديمُ يرى أن مصرَ فى خطر .. لقد ترك إسماعيلُ الحكمَ وهى كالغريقةِ .. الديون باهظة[1] ، وطوائفُ الشعبِ متفرقةٌ ، والجيشُ منقسمٌ على نفسه ؟ « فنوبارُ » رئيسُ الوزراء مع الشراكسةِ والأتراكِ ، والمصريون فيه خلْفَ « عرابى » بقلوبِهم وأرواحِهم ؛ لأنه أقامَ من نفسِه محامياً لهم ، مدافعاً عنهم .. يقول فيه النديم :

وأصبح سيــــداً بين الموالى   تُشيرُ إليه أطرافُ البنـان[2]
تملَّك حبُّـــــه من كلِّ قلبٍ   وأدركَ ما أرادَ من الأمـانى

* * *

وسأل النديمُ نفسَه : كيفَ ينهضُ بواجبه فى هذا الجوِّ ؟! إنه فردٌ ، والحمل ثقيلٌ ، فماذا يفعلُ ؟! لم يتأخرْ ، وتقدَّمَ للكفاحِ ، ثم زادَ منه حين زادَ « توفيقٌ » الطينَ بِلّةً ، وذلك بعد أن خدعه المراقبُ الماليُّ الإنجليزيُّ ، « فجمعا الديونَ بلا تحقيق ، وكوَّناها ، كما جاء فى مذكرات النديم ، بالتلفيق ، وأوصلا تلك الديونَ ، إلى مائةِ مليون » ، ومضى « توفيقٌ » فى مأساتِه ، فرهن المديرياتِ للدائنين ، وملأ وظائف الدولةِ بالغربيين مع الأتراكِ والشراكسةِ .

---

(١) باهظة : ثقيلة شاقة .

(٢) البنان : أطراف الأصابع .

لم يحمِلْ هذا العبءُ[١] الضخمُ الثقيلُ نفسَ النديم على التخاذلِ والتراجُع .. لقد صحَّت عزيمتُه على الكفاحِ ، وبدأه بالدعوةِ الفرديةِ ، ولكنَّها لم تجتذب الخائفين الواجفين[٢] ، فانتقل إلى الدعوةِ الشعبيَّةِ وإلى صفوفِ الفقراءِ الكادحين .

وكان ذلك منذ أواخرِ عهدِ « إسماعيلَ » واستمرَّ فى عهد « توفيق ».يقول النديم :

« كنتُ .. أنكرُ على أهلِ البلادِ وقوفَهم تحتَ رَدْمِ[٣] الاستبدادِ ، وكلما نبهت عاقلًا أسكتنى ، فإن ألححتُ عليه بكَّتَنِى[٤] ، فلم أجد طريقاً لتنبيه الوجهاء والأمراءِ إلا بعصبيةٍ من الفقراء » .

وكانت له على درب[٥] الكفاحِ خطواتٌ ، تَنقَّل فيها خطوةً خطوة ، أو جمع بين ما استطاع منها :

.. عمِلَ على إنشاءِ الجمعيةِ الإسلاميةِ ؛ لتبُثَّ فى النفوسِ روحَ الإسلام ، وتنتَزِعَ منها دوافِعَ الجبنِ والفزعِ والتردُّدِ ، وتوقظَ الغافلين الخامدينَ على ما يحاكُ لهم بأيدى الحكام والأجانبِ من مكايدَ ومؤامراتٍ خبيثةٍ جَشِعة .

.. بدأَ بإنشاءِ أولِ مدرسةٍ أهليةٍ بالإسكندرية ؛ أملًا فى انتشارِ النورِ بانتشارِ العلم ، ورغبةً فى الخروج به من ظلماتِ العسفِ[٦] والاستبدادِ إلى نورِ الحريةِ والحياة الصحيحةِ .. و« قد افتتحَ هذه المدرسةَ ، كما يقول ، فى حفل

---

(١) العبء : الحمل

(٢) الواجفين : المضطربين الذين تدق قلوبهم من الخوف .

(٣) ردم الاستبداد : الردم الحجارة المتساقطة .

(٤) بكتنى : وبخنى .

(٥) درب : طريق .

(٦) العسف : الظلم .

جمع الأمراءَ والوجهاءَ ، والوزراءَ ، والنبهاءَ ، والمحافظَ ، ومأمورَ الضبطيةِ ، وجملةً من أمراء الجهادية » .

.. جدَّ فى نشرِ الجمعياتِ الإسلاميةِ والمدارسِ الأهليةِ فى غيرِ الإسكندرية .

.. أقام من نفسِه خطيباً فى ندواتِ هذه الجمعياتِ وفتحَ الطريقَ بها لغيرِه من الخطباء والمتحدثين ، ولم تقف هذه الخطابةُ عندَ الإسكندريةِ أو القاهرةِ ، بل امتدَّت إلى الأقاليمِ ، وازدادت بازدياد المناسباتِ الداعية إليها .

ولعله كان أولَ من فتحَ البابَ لمثل هذه الخطابةِ فى العصرِ الحديث .. يقولُ عن حفلِ افتتاحِه لأولِ مدرسةٍ بالإسكندرية :

« قمتُ فيهم خطيباً ، وأسمعتهم كلاما رطيباً[١] . وأطلتُ والناسُ بين ناقدٍ ومحققٍ ، ومحبِّذٍ[٢] ومصفِّق ، فكنت أولَ خطيبٍ مصرىٍّ وقف بين الحكامِ والظُّلَّامِ وفتحَ فاهُ بكلام » .

ويقول عن أثر خطابتِه فى الأقاليم :

« أخذت أتقلبُ فى البلادِ ، وجاهرتُ بالتضادِّ ، ولبست ثوبَ الجَلد[٣] ، وتابعت الخطبَ فى كلِّ بلد ، وحركتُ الأفكارَ حركةً لا سكونَ لها ، ونشرتُ مظالمَ الحكامِ وأعمالَها ، وناديتُ بهدمِ دعامةِ الاستبدادِ ، وكسرتُ قيدَ الاستعباد » .

.. جدَّ فى إشاعةِ المحبةِ بين الأقباطِ والمسلمين ؛ حتى يسُدَّ البابَ فى وجهِ من يعملون على التفريقِ بينهم .

.. ألَّفَ الرواياتِ الوطنيةَ والقوميةَ . كروايتى « الوطن » و« العرب » .

---

(١) رطيبا : لينا ناعما (٢) محبذ : مؤيد

(٣) الجلد : الاحتمال

.. ساعــدَ على إنشاءِ بعضِ الصحــفِ وحــرَّر فيها ، كالمحروسةِ والعصرِ الجديد ، وقام بإصدارِ بعضِها سنة ١٨٨١ ، كصحيفة « التنكيت والتبكيت » ، ثم استعاض عن هذه الصحيفة بجريدة « الطائف » التى جاهرَ فيها بجهادِه الوطنى .

* * *

وهكذا كان النديمُ يقودُ تيارَ الجهادِ الوطنىِّ فيوقظ النُّوَّامَ ، ويحرِّكُ العقولَ ، وينبِّهُ المصريين إلى المخاطِر والمظالِم التى تحيط بهم فى عهد توفيق ، فى الوقتِ الذى كان فيه « عرابى » يقودُ تيارَ الجهادِ العسكرىِّ داخلَ الجيش ، وكان كلٌّ من « النديم » و« عرابى » على صلةٍ بصاحبِه وبنضالِه ، كما كان كلٌّ منهما يؤيد الآخرَ ، ويدعَمُ جهوده .

وكان الطريق الذى يمشى فيه النديمُ شاقًّا ، مليئاً بالأشواكِ ، تهددُه فى كل حركةٍ به عيونُ الخديو وأذنابُه ، وتراقبُه جواسيسُ النظارةِ التى يرأسُها « رياض » باشا ، والنديمُ فى طريقِه ، يمضى ولا يتراجعُ ، ويعزِمُ ولا ييئسُ .. وضاق به « رياضٌ » فطلب إلى الخديو أن يصدرَ أمرَه بنفيه ، ووافقَ الخديو ، وكاد يُنْفَى النديمُ خارجَ مصرَ .

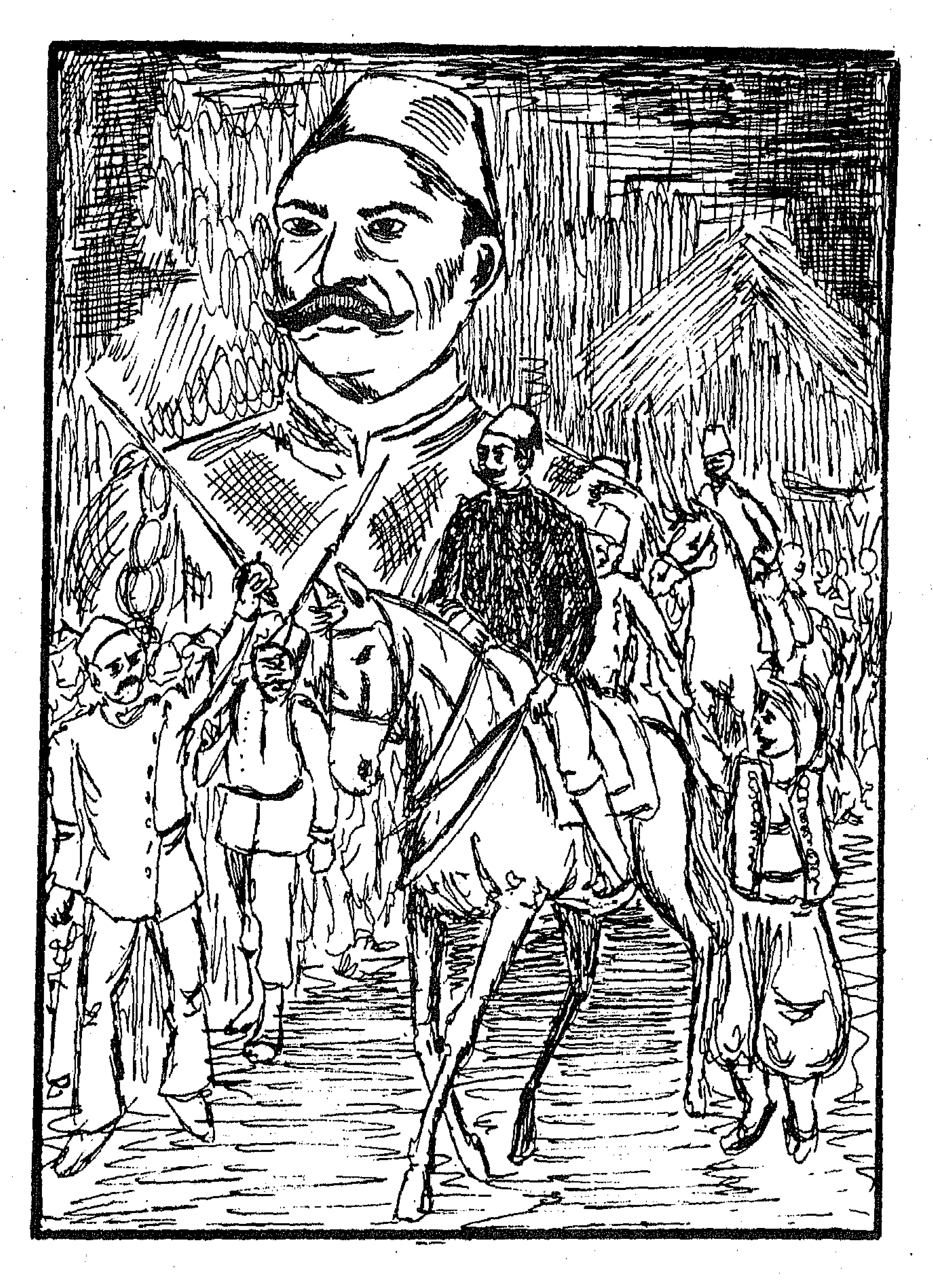
وهنا برزَ لهما أحدُ رجالِ الجيش من المصريين الوطنيين . ذلك هو على باشا فهمى الذى هدَّدَ ، وقال :

« إن نديماً منا معشرَ الجهادية ، وإن لم يحمل سلاح العسكرية ، ولئن أخذتموه بغتة[1] من البلادِ حافظنا عليه بالأرواح والأجناد »

---

(١) بغتة : فجأة .

وعند ذلك تراجع الخديو ، وتخاذَل رياض ، فسلِمَ النديم .



(٧)

النديم قبيل ثورة عرابى

كان لجهادِ النديمِ أثرُه فى الحركةِ العسكريةِ بقيادة « عرابى » .. فقد تنبَّه المصريون خارجَ الجيش ، على صيحةِ هذا المناضل ، ورأَوْا فيها بارقةَ الأملِ فى الخلاصِ مما هم فيه من ظُلمٍ وظلامٍ وضَياع ، كما تنبه عليها العسكريون داخلَ الجيش ، وأحسُّوا أن هذا الأملَ معقودٌ بهم قبلَ غيرهم ..

وشيئاً فشيئاً اشتدَّت الصلةُ بين الزعيمين : زعيمِ الجهادِ المدنيِّ عبدِ الله النديمِ ، وزعيمِ الجهادِ العسكريِّ أحمد عرابى ، وكان لذلك أكثرُ من دافعٍ ؛ فكلاهما ينتمى إلى الشرقيةِ ، وكلاهما مصريٌّ وطنيٌّ ، وهما من الأشرافِ ، وقد نذَرَ كلٌّ منهما نفسَه لإنقاذِ مصرَ من الهاويةِ[1] التى انحدرَتْ إليها .

وأدَّت هذه الصلةُ ، مع اليقظةِ التى حرَّكَها النديمُ ، إلى وحدةِ الكلمةِ بين الجندِ داخلَ الجيشِ والمصريين خارجَه . يقول :

فَطِن أهلُ البلاد ، « فوحَّدُوا كلمتَهم وكلمةَ الأجنادِ ، ونادَوْا بصوتِهم العَلنِىّ ، وتسمَّى المجموعُ بالحزبِ الوطنى » .

* * *

وكان من نتائجِ هذه الوحدةِ :

---

(١) الهاوية : الحفرة السحيقة .

.. أن اشتدَّ ساعدُ « عرابى » ، وطالت ذراعُه ، فقويَتْ على المقاومةِ والرَّدْع .

.. أن أعلنت الحركةُ العسكريةُ فى الجيشِ عن نفسِها ؛ حتى إن الضباط ، كما يقولُ النديم ، عقدوا محافلَ خطابيةً ، ومجامعَ تهذيبيةً ، وقام فيهم « عرابى » بخطب لو وُجِّهَتْ إلى الحديدِ لذاب ، وَوَعظٍ لو طَرَقَ أذنَ إبليسَ لتاب ».

.. أن أفواج المصريين ، ازدادوا إقبالًا على الحزبِ الوطنيِّ ، وانضماماً إليه .

وكان النديمُ شعلةً لا تخبو[1] ولا تنطفئُ ، يُلهِبُ النفوسَ لتنضمَّ إلى هذا الحزب ، كما كان نجمَ الخطابةِ فى كلِّ المحافِلِ التى تُعْقَدُ لذلك .

وبرِحَ[2] الخفاء ، وبدأت الحربُ بين حكومةِ الخديو « توفيق » برياسةِ « رياض » ، والمصريين فى الجيش بقيادة « عرابى » ، والنديمُ من وراءِ ذلك يتابعُ ويشجِّعُ ويناصِر .

وجرت الأمور سريعة !!

« رياض » يكيدُ « لعرابى » وحزبِهِ ، و« عرابى » يردُّ كيدَهِ فى نحرِه[3] ، وأخيراً دبَّرَ « رياضٌ » مؤامرة خبيثةً للقبضِ على ثلاثةٍ من قادةِ المصريين فى الجيشِ ، هم : « عرابى » و« على فهمى » و« عبد العال حلمى » .

وقام عثمان رفقى ناظرُ « الجهادية » فى نظارةِ « رياض » بتنفيذِ المؤامرة ، دعا هؤلاءِ الثلاثةَ إلى ثكناتِ عابدين ، وخدَعهم بأنهم سيشاركون فى الاحتفالِ بزفافِ إحدى الأميرات . ولما أصبحوا داخلَ الثكناتِ باغتهم[4] بعضُ الجند بالقبضِ عليهم .

* * *

---

(١) لا تخبو : لا يتضاءل نورها

(٢) برح الخفاء : انكشف الأمر ووضح

(٣) نحره : النحر أعلى الصدر

(٤) باغتهم : فاجأهم

وعند ذلك شعرت بعضُ الفرقِ المصريةِ بالمؤامرة ، فعجَّلَت بمحاصرةِ الثُّكنَات ، وحمايةِ القادةِ المحاصرين ، ففزع مدبِّرو المؤامرة ، وفرّوا من النوافِذ كالأرانب مضطربين مذعورين[١] .

وأدركَ « عرابى » أن الأمرَ أخطرُ من أن يقابَلَ بالصمتِ أو الاستسلامِ .. فقاد بعضَ الفِرقِ المصريةِ إلى قصرِ عابدين ، فطوَّقَتْه[٢] .

ونظَر الخديو إلى هذه الفرقِ ، فانخلع قلبُه ، واستدعى بعضَ قناصِلِ الدولِ ليساندوه فى موقفِهِ الرهيب[٣] .. وصوَّر النديمُ هذا اللقاءَ . قال :

سأل الخديوي أحمد عرابى :

ـــ لم جمعت حولى هؤلاءِ العساكر ؟

قال :

نطلبُ سقوطَ الوزارةِ جالبةِ الغُمَّـة[٤] ، وفتـحَ مجلسِ الشورى للأمـة ، ووضعَ حدودٍ للحاكِـم والشرعيةِ ، وسنَّ قانونٍ لمعاشِ الجهادية .

قال :

هذا ليس من وظيفَتِك ، فلم تظاهرت بشيعتِك[٥] ؟

قال :

ـــ لست أطلُب وأنا عسكريٌّ الصفة ، بل أنا نائبُ هذه الأمةِ الواقفة .

* * *

اهتز الخديو ولكنه تظاهرَ بالتماسُك ، وتشجَّع وهو كالفأر المذعورِ الذى

---

(١) مذعورين : فزعين خائفين .
(٢) طوقته : حاصرته .
(٣) الرهيب : المخيف
(٤) الغمة : الكرب والهم
(٥) شيعتك : أتباعك

أطبقت عليه المصيدةُ ، وراحَ يسأَلُ أعوانَهُ وقناصلَ الدولِ من حولِه فنصحوا له أن ينزِلَ على طلباتِ « عرابى » ، فنزلَ عليها ، وأقالَ وزارةَ « رياض » باشا ، وولّى وزارةَ شريف باشا ، وعَهِدَ إلى محمود سامى الباروديّ بنظارةِ الجهادية .

هلل الناسُ وكبّروا لانتصارِ كلمةِ الشعبِ بقيادةِ « عرابى » ، وكان ذلك فى سبتمبر سنة ١٨٨١ ، أما النديمُ فقد التحم به ، وصارَ لسان حزبه ، يلقاه فى كلِّ خُطوةٍ من خُطُواتِ النِّضال[١] . ويَشركهُ فى كل اجتماعٍ يعقَدُ لتبادلِ الرأيِ والمشورةِ فى مهامِّ النضالِ الوطنيِّ ، ومع ذلك لم يكن مجردَ ظلٍّ له ، بل كان مستشاراً مؤتمناً ، صاحبَ رأيٍ وفكرٍ وعقيدة .

عارضَه النديم حين قبل رياسةَ « أبى سلطان » لمجلِس الشورى ، وقال له :

« إنه تلميذُ مدرسةِ الظلم الوبيل[٢] ، وتربيةُ الخديو إسماعيل » !

فأجابه « عرابى » :

« لم تَعْدُ[٣] بعتبِك ما فى القلب ، ولكن لا بُّد للصيادِ من صيدِ الكلب »

وعارضه فى قبولِه منحَ بعضِ الرتب لبعضِ العسكريين دونَ بعض ، ولكنه اعتذرَ بعدم اتساعِها لغيرِ من ظفر بها .

* * *

(١) النضال : الجهاد

(٢) الوبيل : الثقيل .

(٣) لم تعد : لم تتجاوز .



(٨)

النديم والثورة العرابية

كان من الطبيعيِّ ألا تقفَ قصةُ الصراعِ بين الخديو وحكومتِهِ و« عرابى » وأنصارِه عند ما حدث فى لقاءِ عابدين ، وكان كلُّ شيءٍ يُنذِرُ بأن فصولَها الأخيرةَ والأليمةَ وشيكةُ[1] الوقوع .

النديمُ يُحُسُّ الخطرَ الذى ينتظرُ زعيمَ الثورةِ أحمد عرابى ، وهو فى قمةِ نصرِه .. فيقول مصوِّراً انصرافَه بالجيشِ من عابدين :

« انصرف (عرابى) والقلوبُ ترجُفُ[2] عليه ، وعيونُ الأمم تنظرُ إليه » .

ثم لا ينسى أن يؤدِّىَ للنصر واجبَه ومراسمَه ، من الإشادةِ بالجيشِ[3] وقائِده ، ومن الاعتزازِ بعودتِه الظافرةِ من عابدين ، ورجعةِ فرقِه إلى الأماكنِ التي عيِّنَت لها بعد هذا النصرِ الذى لم تُسفَك[4] فيه الدماء .

والخديو يسيرُ فى سياسةٍ ذاتِ خطوطٍ ثلاثة : الأولُ الدسُّ « لعرابى » عند الخلافةِ العثمانيةِ فى تركيا ، وتصويرُه فى نظرها جنديًّا متمرداً[5] ، ثائراً على السلطان ، حريصاً على الانفصالِ عنه وعن خلافتِه ، والثانى الاعتمادُ على الأتراكِ والشراكسةِ فى تدبيرِ المؤامراتِ للانتقام من « عرابى » والقضاءِ على

---

(١) وشيكة : قريبة .
(٢) ترجف : تهتز وتضطرب خوفا
(٣) الإشادة به : مدحه والثناء عليه .
(٤) لم تسفك : لم تسل .
(٥) متمردا : عاصيا خارجا على الطاعة .

حركتِه . والثالثُ التقربُ إلى « إنجلترا » ، لتكونَ عند دعوتِه حين يناديها بالإسراعِ إليه لحمايتِه وحمايةِ عرشِه من « عرابى » وثورته .

* * *

أمَّا « عرابى » فكان يُحِسُّ الخطرَ ، ويفتحُ عينَه وعيونَ أتباعِه على كلِّ حركةٍ مشبوهةٍ للخديو وشيعته ، وقد سرَّه أن أمرَ الوزارةِ صار إلى محمود باشا سامى البارودىِّ ، وهو من أعوانِه المخلصين له . ولمصرَ والمصريين . كما سره أنه عمِلَ على التقربِ من السلطانِ ورجالِه ، واستطاع أن يكسبَه إلى جانبِه فترةً ، أقام فيها حجاباً بينه وبينَ دسائِس الخديو تَوفيق وبطانته .

* * *

ونظرت « إنجلترا » ، فوجدتِ الفرصةَ التى طالما تمنتها قد لاحت[1] لها ... كانت تحلُمُ بدخول « مصر » وقد تبدَّد هذا الحلمُ مرةً ومرةً ، ولكنه عاد فلمَعَ لها واستهواها[2] .. وفكرت فوجدت فى « مصرَ » عرشاً مهتزًّا ، وحاكماً ضعيفاً خائناً ، ودولةً غارقةً فى ديونِها ،.. وسُرعان ما صمَّمَت على دخولِ « مصر » ، وما زالت بالسلطانِ العثمانىِّ فى تركيا حتى أقنعته بأنها تعمَلُ لخيرِه ، وتحرِصُ على إقرارِ النظامِ والأمنِ فى مصر له .

وبعد وقتٍ قصيرٍ كان أسطولُها فى الإسكندريةِ ، تحاولُ به دخولَ البلاد بغير حرب ، معتمدةً على الخديو ووعودِه ومناصرتِه .

ولكن الزعيمَ أحمد عرابى صمَّمَ على القتال ، وحاربَ حرباً بطوليةً شريفَة ، قاومَ فيها هو ورجالُه أعنفَ مقاومة ، ووقف فيها أمامَ دولةٍ عظمى هى « إنجلترا » ، وخليفةٍ ضعيفٍ متخاذلٍ فى تركيا ، وحاكمٍ غادرٍ فى « مصر » . انضم إلى

---

(١) لاحت : ظهرت . (٢) استهواها : اجتذبها .

جانِب العدوِّ ، وأذنابِ خونةٍ ، باعوا أنفسَهم له بالمالِ ، وساندوه طمعا فى أعراضٍ ذاتيةٍ وضيعة .

وأخيراً دخل الإنجليزُ القاهرةَ ، وخضعت لهم مصر ، حين استسلم « عرابى » ومن معه .

ولا ينسى تاريخ الثورةِ العرابيةِ كفاحَ النديم .. كان رجلا بفرقةٍ من الجيش ، وكان لسانَ مصرِ المعبِّرَ عن آلامِها وآمالَها ، بخطابتِه فى الندواتِ والمحافلِ والمجتمعاتِ الشعبية ، وبقلمِه فى المقالاتِ والموضوعاتِ الناريةِ التى يحررُها فى الصحف .

وكان إلى جانب « عرابى » زعيمِ هذه الثورةِ ومحورِ الحركةِ النضاليةِ فيها ، يتنقلُ كالطيرِ هنا وهناكَ ، ليكشفَ عن السراديبِ[1] المظلمةِ لخيانةِ الخديو وحكومتِهِ وأذنابِه ، وليعمل على اجتذابِ القلوبِ للانضمامِ إلى الثورةِ ومناصرتِها بالعقولِ والمشاعِرِ والأموالِ والأرواح ، كما كان المستشارَ المؤتمَنَ لها فى وقتٍ عَمِىَ فيه الطريقُ على السائرين به من المجاهدين المخلصين .

* * *

ويصوِّرُ النديمُ أثَرَ الخيانةِ فى هزيمةِ الثورةِ العرابيةِ ، فيقول فى حديثِه عن معركةِ التل الكبير :

« فى نصف شوالٍ[2] قام الجيشُ وتحول ، وهجمَ على العدوِّ الهجومَ الأول ، واندفعت العساكرُ كالسيل ، إلى أن دخلَ الليل ، فبعد أن ظهرت للنصرِ آية ، رجع على يوسُف وأرجعَ ألايه ، فانفصل الجيشان ، وخمدَت النيران ، فقلت

---

(١) السراديب : الأبنية الخفية تحت الأرض . (٢) سنة ١٢٩٩ هـ



« لعرابى » باشا إن هذا الرجلَ يريدُ لنا العِثار ، وهو الذى خذَّل العساكرَ بالفِرار ، فإما أن تحاكمَه محاكمةً عسكرية ، وأما أن ترسلَه إلى ديوانِ الجهادية » .

ولكن الزعيم تهاون فى القضاءِ على هذه الخيانةِ ، فكانت من أهم أسبابِ القضاءِ على ثورتِه .

كذلك كان النديمُ من الثورةِ العرابيةِ وكذلك عاش فى قلبِ نيرانِها ، فكان فى كل خطوةٍ من خطواتِه فيها معرضاً للسجنِ أو القتلِ أو النفى ، ولكن عنايةَ اللهِ رعته ليُتمَّ رسالتَه ونضالَه .

(٩)

اختفاء النديم

احتلَّ الإنجليزُ مصرَ سنة ١٨٨٢ .

وأصبح كلُّ شيءٍ بها فى أيديهم: « الخديو توفيق » وحكومتُه ، وأذنابُه من الخونةِ الخارجين على الشعبِ ، ثم ما يملك هذا الشعبُ من أرضٍ ومالٍ وخيرات .

وجاءت ساعةُ الحسابِ ، وتنمَّر هذا الخديو للانتقام من « عرابى » وأنصارِه ، ونَسِيَ أنه كان يقفُ أمامَه بالأمسِ القريبِ كالفأرِ المذعور .. فأوعزَ إلى رياض باشا رئيسِ حكومته أن ينكِّلَ[1] بهم . وكان رياضٌ أشدَّ من سيدِه رغبةً فى هذا الانتقام وحرصاً عليه .. فنهض هو وأذنابُه بهذا العار على أشنعِ[2] صورة : شنقُوا نفراً ، وسمُّوا نفراً ، وساقوا إلى السجنِ أفواجاً من المصريين المخلصين .

وفى ضحى اليوم الثالِث من ديسمبر عُقِدَ مجلسٌ لمحاكمة « عرابى » ، على رأسه أحدُ العسكريين من الإنجليز .

وجىء « بعرابى » فوقف مرفوعَ الرأس أمامَ هذا المجلس .

وتُلِيَ عليه قرارُ الاتِّهامِ بعصيانِه لأميرِ مصرَ الخديو توفيق .

ورُفِعت الجلسةُ . ثم أعيدت فى اليومِ نفسِه ، ونطق رئيسُ المجلسِ بالحكم ،

---

(١) ينكل بهم : يشدد عليهم العقاب   (٢) أشنع : أفظع

وكان الإعدام .

* * *

فرِحَ أعداءُ « عرابى » بهذا الحكم ، وتمنَّى رياضٌ فى أعماقِ نفسِه أن ينفَّذَ ولا يبدَّل ، وعقد مجلساً استئنافيًّا صوريًّا لذلك ، عرضَ فيه الأمرَ على اللورد « دفرين » القائِم بأمرِ الاحتلالِ الإنجليزىِّ فى مصر ، وزينَ له إقرارَ حكم الإعدامِ ؛ كى ينزاح « عرابى » من وجهِ الخديو والإنجليزِ ، ويخمُدَ[1] أنصارُه من بعده ، ولكنِ « دفرين » سأله كما يقول النديم :

أين الدليل ؟

قال رياض : هذا حكمُ الشرع الجليل .

قال دفرين : النصُّ الشرعىُّ مُسَلَّم ، ولكن يقتلُ مع « عرابى » الخديو والسلطانُ المعظم ؛ فإن الحربَ قامت باتفاقِ الثلاثة عليها ، وحكمِهم بحشدِ[2] الجنود إليها . فوجَمَ[3] رياض ، ولم يبدُ منه اعتراض ، وصدق قولُ الصادق الأمين : « إن الله ليؤيِّدُ هذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ أو الكافر » .

وعاد المجلسُ إلى الانعقادِ ، فأعلن أن الخديو تعطَّفَ فأبدل بحكم الإعدامِ النفى مدى الحياة .

* * *

ووسط غبارِ هذه المحاكمةِ كان البحثُ جادًّا عن مستشار « عرابى » وساعدِه وخطيبِ ثورته ، وعدوِّ الخديو وحكومتِه وأذنابِه : « عبد الله النديم » ، ولكنَّ هذا الرجلَ اختفى فلم يعرِفْ مكانَه أحد .

---

(١) يخمد : يسكن . (٢) حشد : جمع

(٣) وجم : سكت على غيظ .

وذُهِلَت[١] ، الحكومةُ .. لقد بذلت ما تستطيعُ للكشفِ عنه .. أبلغت مدنَ القطرِ وقراه أوصافَه ، وعيَّنَت له الجواسيسَ فى كلِّ مكان ، وجعلت لمن يدلُّ عليه ألفَ جنيه ، وكان ذلك مبلغاً ضخما فى تلكَ الأيام ، وطلبت إلى رجالِ الشرطة أن يعملوا المستحِيلَ للقبض عليه ، وتوعَّدت من يُخفيه أو يساعدُ على إخفائِه بالإعدامِ ، ولم تقفْ محاولاتُها عند مصرَ وحدَها ، بل امتدت إلى خارِج البلادِ كالشامِ وإيطاليا .. ولم يغنِ كلُّ ذلك عنها شيئاً .

لم يُبلغْ أحدٌ عن النديم ، ولم يقدّم الرجلُ نفسَه للمحاكمة ، ولم يكن عن جبنٍ فيه ، أو خوفٍ من العقاب ، وإنما كان نوعاً من التحدِّى للحكومةِ ، ومن الاحتقارِ للقائمين على أمرِها .

* * *

وطال اختفاءُ النديمِ حتى بلغ تسعَ سنوات .

وساعدَ على اختفائِه حبُّ الناسِ له و« لعرابى » الذى جاهدَ معه ، وكراهتِهم للخديو الذى سخَّرهم للأتراكِ والشراكسةِ ، وباعَ حريةَ بلادِهم وكرامتَها للإنجليز .

كما ساعدَ على هذا الاختفاءِ براعةُ النديمِ فى التخفِّى ، وقدرتُه على خداعِ من يَرَوْنَه .. ومن مظاهرِ هذه القدرة :

أنه كان يغيِّرُ من شكلِه ، فيطيلُ شعرَ رأسِه حيناً ويقصِّرُه حيناً ، ويرسلُ[٢] شاربَه أو يقصُّه ، ويطيلُ لحيتَه أو يحلقُ شعرها .

وكان يبدِّلُ من ملبَسِه ، حتى يطابقَ ما يدَّعِيه حين يسألُ عن نفسِه وعملِه ؛

---

(١) ذهلت : اضطربت حتى غفلت عما يعنيها .

(٢) يرسل شاربه : يتركه دون أن يقصه أو يقصره .

فقد يرتدى حلةً حين يريدُ أن يظهرَ فى مظهرِ سائحٍ وافدٍ ، أو يتزيّى[1] بزىٍّ المتصوفين حين يَعِنُّ[2] له أن يبدُوَ وكأنَّه واحدٌ منهم ، بجبَّتِه وقفطانِه وعمامتِه الخضراء ، ومسبحَتِه الطويلة التى يطوِّق بها عنقَه ، وربما اختار جلباباً ، أو سروالًا وقميصاً ورداءً[3] ، أو غيرَ ذلك مما يضلِّل به من يحاول أن يتعرفَه .

كما كان يخالفُ من لهجتِه ، حتى توافقَ ما يتحدثُ به عن نفسِه ، من أنه شامىٌّ أو مغربىٌّ أو حجازىٌّ أو صعيدىٌّ أو غيرُ ذلك .

وكان يُحكِمُ[4] من الحديثِ ما لا يشكُّ فيه محدثُه ، مثقفاً كان أو عامِّياً ، متعلماً أو جاهلًا ، جمَّ المعرفةِ الدينيةِ أو الخبرةِ الدنيوية . حدَّث عن نفسِه أنه : « جلس يوماً على إفريز محطةِ طنطا ، ينتظرُ القطارَ القائمَ إلى كفرِ الزيات ، وكانت الحكومةُ قد أرسلت الجواسيسَ فى أكثرِ البلادِ للقبضِ عليهِ ، فلقيَه هناك فريقٌ اشتبهوا فى أمرِه ، وقد عرفَهم وهم له منكرون[5] . فما زال يحدِّثهُم حتى اعتقدوا أنه رجلٌ من الصالحين المقرَّبين ، فلما جاء القطارُ أوصلوه إليه ، وحملوا معه أمتعتَه ، وظلُّوا وقوفاً إلى أن أوشكَ[6] القطارُ أن يتحرك ، فقبَّلُوا يديه ، وسألوه الدعاء » .

بهذه الوسائِل خَفِىَ النديم عن أعينِ الحكومةِ ، فكان بالقاهرة عند أحدِ أصدقائِه الأوفياءِ من أبناءِ الأزهر ، فى مكمنٍ[7] خفىٍّ عن أعينِ الشرطةِ وظنونِ الجواسيس ، وكان بطنطا فى رحاب[8] الشيخ شحاتة القصبىِّ أحدِ المتصوفين

---

(١) يتزيى بزيه : يلبس ملبسه . (٢) يعن له : يظهر له .
(٣) رداء : الرداء ما يلبس فوق الثياب كالعباءة .
(٤) يحكم : يتقن . (٥) منكرون له : جاهلون به .
(٦) أوشك : قارب . (٧) مكمن : مخبأ .
(٨) رحابه : دوره وساحاته .



الذين يتهافتُ عليهم الناسُ ، التماساً لهَدْيٍ أو بركةٍ أو عطاءٍ ، ثم كان فى « العتوة »[1] القبليةِ عندِ عمدتِها الشيخ محمدٍ الهمشريِّ ، وفى داره قضى ثلاثَ سنواتٍ ، تزوجَ بها ، وَوُلِدَت له طفلةٌ ، ثم ماتت .. وهو بعد ذلك بشباس الشهداء فى رعايةِ الشيخ إبراهيم حمروش ، ثم فى « الجميزة »[2] عنـد أحـدِ الأعيان بها ... وفى الجميزةِ لمحه أحدُ الجواسيس ، فأبلغ عنه أملًا فى المكافأة ،

(١) العتوة : بلد بقطور من أعمال مديرية الغربية .

(٢) الجميزة : بلدة على مقربة من طنطا .

وسُرعان ما قبضت عليه الشرطةُ ، ونُقِلَ إلى سجن طنطا سنةَ ١٨٩٢ .. وخاب ظن من أبلغ عنه ؛ لأن فترةَ المكافأةِ كانت قد انتهت ، ولأنه عرَّض نفسَه وعرضَه لألسنةِ أبناءِ الوطن الأحرار .

وقضى النديمُ فى السجنِ فترةً لم تطل ؛ لأن الخديو حاولَ عبثا أن يتقربَ إلى الشعبِ ، فأصدر أمرَه بالعفوِ عن النديمِ ، مع نفيِه إلى خارِج القطر ،..

ونُفِيَ النديمُ ، فذهبَ إلى « يافا » ، وأخذ يتنقلُ بين بلادِ فلسطين ، بعيداً عن وطنِه ؛ حتى مات « توفيق » وتولَّى عباس حلمى الثانى ، فأباح عودتَه إلى مصر .

* * *

وخلالَ هذا الاختفاءِ الذى امتدَّ زمناً غير قصيرٍ حُرِم النديمُ حريتَه ، وعاشَ حياةً واجفةً[1] غيرَ مستقرة ، ولكن حبَّ الناس هيأ له من يُخْفيه معرِّضاً حياتَه للخطرِ ، ومن يتكفَّلُ[2] بمئونتِه وخدمتِه . ومن يترددُ عليه لإيناسه ، ومن يحملُ عبءَ المراسلاتِ بينَه وبين أبيه وشقيقِه ، ومن يوفرُ له المراجعَ ليقرأ ويطلعَ ويؤلِّف .. وكان من هؤلاء صديقٌ للنديمِ ، ضرب المثلَ الأعلى للوفاءِ وحسنِ الصحبة ، مع أنه غربىّ فَرنسى ، وليس من مصرَ أو من أبناءِ العروبة .

* * *

(١) واجفة : مضطربة خائفة .

(٢) يتكفل : يتعهد ويلتزم .

(١٠)

كفاح النديم فى أخريات حياته

عاد النديمُ من منفاه فى الشامِ إلى مصرَ الحبيبة. وقرت عينُه بالعودةِ إليها ، وبالجوِّ الجديدِ الذى وجدَه بها ، فقد مات الخديو « توفيق » بمظالِمه وضحاياه ، وخبت بموتِه شُعَلُ الفتنةِ التى كان يلهبُها أذنابُه ، وتولى العرشَ بعدَه الخديو عباس حلمى الثانى ، وكان فتيًّا متحمساً ، يعمَلُ على التقرُّبِ من الوطنيين ، ويودُّ لو أزاحَ عنهم كابوسَ الاستعمارِ الإنجليزى .. ولمس النديمُ فيه هذه الروحَ ، واطمأنَّ إليه ، فتحوَّلَ عن محاربةِ القصرِ ، ووجَّه ضرباتِه إلى المستعمرين المعتدين .

وكان على يقينٍ من أنه يواجهُ عدوًّا صُلباً ، بيده الأمرُ فى مصر ، مع ما يحاول الخديو من إضعافِ سلطانه .. كذلك كان على يقينٍ من أنه لو قدَّمَ الصمتَ ثمناً لمنصبٍ يريدُه ، أو مالٍ يعيشُ منه فى ترفٍ ونعيمٍ لكانَ له من المنصبِ ما شاء ، ومن المالِ ما أراد ... ولكن النديمَ لم يضعُف أمامَ السلطانِ الغاشم[1] ، ولم يستهوِه[2] المالُ ببريقه وجاذبيته ، وحملَ بقلمِه ولسانِه على الإنجليزِ حملةً هزتهم هزةً شديدة ، حتى خُيِّلَ إليهم أن هذا الوطنيَّ العائدَ سيُشعِلُ عليهم ثورةً كثورة عرابى .

---

(١) الغاشم : الشديد الظلم . (٢) يستهوه : يجتذبه .

وقضى النديمُ فترةً أخرى من النضالِ الراسخِ المتتابعِ الضربات ، استطاعَ فيها أن يكشف الإنجليزَ ويفضحَ أسرارَهم ونوايَاهم ، وأعانه على ذلك موقفُ الخديو منهم ، وظهورُ الزعيمِ مصطفى كامل بدعوتِه الرائدةِ إلى الحريةِ والاستقلال .

* * *

ولم يسكت عنه الإنجليزُ ، وما زالوا به حتى تقررَ نفْيُه خارجَ مصر ، فعاد إلى يافا مرة ثانية .

وهناك صممَ على متابعةِ الجهاد ، فجردَ لسانَه لمحاربة الفسادِ فى دائرةٍ أوسعِ ، هى دائرةُ الخلافة فى تركيا ، وخَشِيَت بطانة الخليفةِ العثمانىِّ أن يثيرَ غضبَ الخليفةِ عليهم ، فدسوا له عندَه ، وألهبوا صدرَه عليه ؛ حتى قررَ إبعادَه عن الشام .

وحارَ النديم : أين يذهب ، وهو مبعدٌ عن وطنِه ، ومبعدٌ عن دارِ الخلافة ؟!! وكان الموقفُ أليماً ، لكن بعضَ رجالِ البطانةِ ، توسَّطوا له عند الخليفةِ فعفا عنه ، وقبلَه فى دارِ الخلافة ، وألحقه بإحدى الوظائف بها .

وفى تركيا قضى النديمُ الثائرُ الحائرُ أخرياتِ حياتِه ، ولم تسلم أيامُه فى هذه الفترة من الصراع بينه وبين من اتصل بهم من رجال الحاشية ... وأخيراً أسلم روحَه فى الآستانةِ ، ودُفِن فى إحدى المقابر بها سنة ١٨٩٦ ، بعيداً عن ثرى مصرَ التى أحبَّها ومنحها قلبَه وعقلَه وحياتَه .

* * *

(١١)

ختام فى كلمات

لم تطل حياةُ النديم كثيراً ؛ فقد كان كلُّ عمرِه ثلاثاً وخمسين سنة ، بدأت عام ١٨٤٣ ، وانتهت عام ١٨٩٦ ، ولكن هذه السنواتِ ، مع مَرِّها السريع ، عاصرت حِقبةً[١] من تاريخ مصر ، حافلةً بأحداثِها ، متميزةً بمَا تركت فى هذا التاريخ من آثار ؛ فقد شَهِدَت اتزان سعيدٍ ، وغطرسةَ إسماعيلَ ، وخيانةَ توفيقٍ ، ووطأةَ الاستعمارِ الإنجليزى ، كما شهِدَت ثورةَ عرابى ونضالَ مصطفى كامل ، ويقظةَ الشعب على هذا النضالِ القوىِّ المستنير .

وكان النديمُ من صناع هذه اليقظَةِ ، ومن حمَلَةِ الأعلامِ الذين قادوا مواكبَ الشعبِ على دربِ[٢] الحرية ، فى وقتٍ كانت الحريةُ فيه طريقاً إلى السجنِ والنفيِ والموت .. وبهذه التضحيةِ والروحِ الفدائيةِ ترك لنا من حياتِه كتاباً قيما[٣] حافلاً[٤] بالدروسِ المضيئة ... ومن هذه الدروس :

نزعتُه العصامية :

فقد عجَّل بالاعتمادِ على نفسه فى معيشتِه وحياتِه ، وأبى أن يظلَّ عبئاً على أبيه ، كما يفعلُ أكثرُ الأبناءِ فى متجمعاتِنا الشرقية .

تعليم نفسه بنفسه :

فمع تركِه للدراسةِ المنظمةِ فى جامعِ إبراهيم باشا تعلَّم حرفةَ « الإشارات

---

(١) حقبة : مدة .
(٢) درب : طريق .
(٣) قيما : ذا قيمة .
(٤) حافلا : مليئا .

البرقية » ، واعتمد عليها فى حياتِه الوظيفيةِ .. ثم كانت له مدرسةٌ أوسعُ هى مدرسةُ الحياة ؛ ففِى هذه المدرسةِ نمَّى مواهبَه الأدبيةَ ، ومعارفَه الإسلامية ؛ بالقراءةِ الواعيةِ الدائبةِ لدواوينِ الشعر ومأثوراتِ[1] الرسائل والخطبِ ، وكتب النوادِر والطرائِف[2] ، وألوان الأدَب الشَّعبىِّ على تنوعِها واختلافِها ، ثم بالاتصالِ بالكتبِ الدينيةِ ، وبأصدقائِه من أبناءِ الأزهر الذين استمرت علاقته ببعضِهم أمداً[3] طويلا ، وإلى ذلك كلِّه كان شديدَ النهمِ بقراءةِ ما يقعُ فى يده من كتبِ التاريخ والسياسةِ والاجتماعِ ، وغيرِها وغيرِها من وسائل الثقافةِ العامة .

طموحه :

فقد نشأ النديمُ فقيراً مغموراً[4] بعيداً عن الأضواءِ ، ولكنه كان طموحاً ، يودُّ أن يقفِزَ ، ولا يحبُّ أن يخطوَ فى صعودِ السُّلَّمِ درجةً درجة .. ولعلَّه كان يريدُ أن يكون نديمَ العظماءِ وسميرَهم ، وحين نجحَ فى ذلك تحوَّلَ عنه ، وتمنَّى لو كان لسانَ الشعبِ المعبِّر عنه خارجَ الجيش ، كما كان « عرابى » المعبِّرَ عنه فى صفوفِ الجيش ، وتحقق له الكثيرُ مما تمنَّى فقد أصبح من كُتَّاب الصحفِ الوطنيةِ فى عصرِه ، كما كان خطيبَ الثورةِ العرابيةِ ، لا ينازعُه فى ذلك منازع .

ثباته على مبدئه :

فقد كان وطنيًّا يحبُّ مصرَ ، كما يحبُّ أن تكون للمسلمين جامعةٌ تجمعهُم فى دولةٍ إسلاميةٍ كبرى .. وفى سبيلِ هذه العقيدةِ عاش ، ومن أجلها انضمَّ إلى « عرابى » وإلى الثورةِ العرابيةِ ، وعلى هديها حاربَ القصرَ ورجالَه . والإنجليزَ وأذنابَهم ، وعرَّض نفسَه للسجن ، وللنفِى مرةً بعد مرةٍ ، بل للإعدامِ مع من

---

(١) مأثورات الرسائل : الموروث منها (٢) الطرائف : النوادر

(٣) أمدا : زمنا . (٤) سباته : غفلته وعدم وعيه

أُعدِمَ من الوطنيين .

قهره لليأس :

كان اليأسُ يطاردُ النديم .. طارده حين تخلَّى عنه أبوه ، وحين فُصِلَ من وظيفته ، وعندما غَضِبَ عليه الخديو ودافع عنه على باشا فهمى ، وعندما قرر « رياض » إقصاءَه عن البلادِ ثم تراجع ، ولما أُلقِىَ القبضُ عليه بعدَ اختفائه ، فقد نُفِى ثلاث مراتٍ : على يد « توفيق » ، و « الإنجليز » ، و « السلطان عبد الحميد » .

ومع ذلك كلِّه وقف شامخَ الرأسِ ، طلقَ اللسان ، قويًّا على الأحداثِ ، يناضلُ حتى آخِرِ نَفَسٍ فى حياتِه ، ويقاومُ والطريقُ كله أشواكٌ وعقباتٌ .. حمل رايةَ الجهاد المدنىِّ لتنويرِ الشعبِ وتحريره ، والشعبُ يدفعُ إلى اليأسِ بغفلتِه وسُباته[1] .. يقول : « كنت أنكرُ على أهلِ البلاد وقوفَهم تحت رَدْمِ[2] الاستبداد ، وكلما نبهتُ عاقلًا أسكتنى ، فإن ألححتُ عليه بكَّتَنِى[3] » ، ورفع هذه الرايةَ والحكومةُ تحاربُ كلَّ من يُلَوِّحُ بها للشعبِ لينبهَه أو يوقظَه ... ثم تنقلَ فى البلادِ يخطبُ ، وأطلق قلمَه فى الصحافةَ يحرِّرُ المقالاتِ الناريةَ والجوُّ من حولِه جوٌّ عسِفٌ[4] وإرهاب ، والناسُ فى خوفٍ وفزع مما يحِلُّ بهم من عذاب . يقول : « كنتُ أجدُ فى أغلبِ الطباع جبناً ، وعند الأمراءِ والوجهاءِ غبناً » .. ووقفَ فى وجه الخديو والخونةِ ، وتَصدَّى للإنجليزِ ومن يناصرُهم ، وحاربته حاشيةُ السلطان عبد الحميد ، ومع ذلك كله لم ييئس ، وظل حتى آخر أيامِه يجاهدُ بقلمِه ولسانِه ، ويضحِّى بكل ما يملكُ فى سبيل وطنه ومبادئه .

---

(١) ردم : الردم ما يسقط من حجارة الجدار نحوه .

(٢) بكتنى : وبخنى .   (٣) عسف : ظلم .

(٤) مغمورا : غير معروف .



مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

١ ــ حافظ إبراهيم

٢ ــ محمود سامى البارودى

٣ ــ عباس محمود العقاد

٤ ــ أحمد عرابى

٥ ــ طه حسين

٦ ــ مصطفى كامل

٧ ــ سعد زغلول

٨ ــ على مبارك

٩ ــ محمد فريد

١٠ ــ جمال الدين الأفغانى

١١ ــ محمد كريم

١٢ ــ عمر مكرم

١٣ ــ عبد الله النديم

١٤ ــ الإمام محمد عبده

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

الثمن ٧٥

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه